

القيمة الأدبية للنقائض الأموية

خالص زهرة

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

الملخص:

النقيضة هي أن يتجه الشاعر بقصيدته إلى شاعر آخر، هاجيا أو مفتخرا، فيعتمد الآخر إلى الرد عليه بقصيدة هاجيا أو مفتخرا، ملتزما الوزن العروضي والقافية والروي الذي اختاره الشاعر الأول، فيفسد على الأول معانيه، ويردها عليه، ويزيد عليها.

فالمحوران اللذان تدور عليهما النقائض هما الشكل الشعري (الوزن والقافية)، والمضمون (المعاني) التي تتكون من الهجاء أو الفخر، معتمدا على الأنساب والأيام والمآثر والمثالب...

وإذا كانت النقائض قد نشأت في حظيرة الشعر الجاهلي، واشتد عودها في ظلال (الأيام) بين القبائل، فإنها ازدهرت في ظلال سيوف الدين الجديد، واشتعلت في العصر الأموي نارا موقدة بين الشعراء الفحول الثلاثة: الفرزدق، وجربير، والأخطل...

تولى الأمويون الخلافة في الشام تسعين سنة (40هـ-132هـ) أظهروا فيها تعلقا شديدا بالعروبة، وحافظوا على النزعة العربية، فرفعوا شأن العرب، وقصروا وظائف الدولة عليهم وحدهم، من ولاية وقيادة جيوش ومناصب سياسة وقضاء...

ولكنهم من جهة ثانية، خرجوا على تقاليد إسلامية حين اتخذوا مسلكا مغايرا لمسلك الخلفاء الراشدين، متأثرين في ذلك بتقاليد الروم والفرس، ففصلوا السياسة عن الدين، وصار الأمر ملكا يهدف إلى غرض سياسي عملي، حيث كان خلفاء بني أمية ملوكا وأصحاب عرش دنيوي، همهم حفظ الملك وراثيا لأبنائهم، وإخضاع الرعية لسلطانهم. وكانوا أصحاب دنيا لا دين، فاتخذوا أسلوبا الترغيب والترهيب، وأغدقوا الأموال على الأنصار والخصوم، من أجل تثبيت عروشهم، وحاولوا ضم القبائل اليمنية إلى جانبهم، فأصهر معاوية إلى بني كلب الحميريين من اليمن، حيث تزوج ميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد ولده.

وفي العصر الأموي بعثت العصبية القبلية من جديد (1) فقد نفس الأمويون على الهاشميين ظهور الإسلام فيهم، ولزموا جانب المعارضة، حتى تم فتح مكة، فأسلموا مرغمين. ونفست العدنانية على قريش كون الأمر فيهم. ونفست اليمانية ذلك على العدنانية، ونشبت النقائض بين شعراء هذه القبائل. وكما كان للعرب في الجاهلية أسواق للتفاخر والتنافر، كسوق عكاظ، فقد أصبح لهم في العصر الأموي أيضا أسواق للتفاخر والتنافر، كالكناسة قرب الكوفة، والمربد قرب البصرة.

كان الخلفاء الراشدون قد أنكروا شعر الهجاء، كما فعل عمر وعثمان (2) فلم تستطع النقائض أن تحيا في صدر

العصر الراشدي، فظلت خادمة حتى اشتعلت من جديد مع ظهور الأحزاب السياسية في العصر الأموي:

فعندما قتل عثمان بن عفان قال الوليد بن عقبة (أخو عثمان لأمه) متهما بني هاشم في الغدر به:

بني هاشم، إيه فما كان بيننا وسيفُ ابنِ أروى عندكم وحرائبُ
بني هاشم ردّوا سلاحَ ابنِ أختكم ولا تنهبوه، لا تحلّ مناهبُ
غدرتم به كيما تكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازبُ⁽³⁾

فأجابه الفضل بن العباس يدفع التهمة عن الهاشميين:

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم أضيع وألقاه لدى الروع صاحِبُ
سلوا أهلَ مصر عن سلاحِ ابنِ أختنا فهم سلبوه سيفه وحرائبُ
وكان ولي العهد بعد محمد علي، وفي كل المواطن صاحبه⁽⁴⁾

ولما تنافس علي ومعاوية على الخلافة قال كعب بن جعيل منتصرا لمعاوية:

أرى الشامَ تكره ملكَ العرا ق، وأهلُ العراق له كارهونا
وكلُّ لصاحبه مبغضُ يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا: عليّ إمامٌ لنا فقلنا: رضينا ابنَ هند رضينا⁽⁵⁾

فأجابه النجاشي ينقض قوله، وينتصر لعلي:

دع معاوي مالن يكونا فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم عليّ بأهلِ العراق وأهلِ الحجاز فما تصنعونا
جعلتم علياً وأشياعه نظيرَ ابنِ هند، أما تستحونا⁽⁶⁾

والواقع أن النقائض بلغت في العصر الأموي عصرها الذهبي في تاريخها الأدبي، حيث استعرت النقائض بين فرسانها الثلاثة: جرير، والفرزدق والأخط. ثم بين هؤلاء والراعي النميري، وذو الرمة، وعمرو بن لجأ وغيرهم. وكان دافعها الأول العصبية القبلية التي أعلوها على الرابطة الدينية، بالإضافة إلى كثرة الخلافات والأحداث السياسية والاجتماعية: وقعة الجمل، وقعة صفين، مصرع ابن الزبير، مقتل الحسين، خروج المختار الثقفي، طغيان الحجاج، نقل عاصمة الخلافة من الحجاز إلى دمشق، فقدان الحجاز لمكانته الدينية، موقعة مرج راهط... الخ.

وكان الأخط لسان حال قومه تغلب، يحتج للأمويين وحققهم في الملك، حتى عد شاعر القصر الملكي، وسمي شاعر أمير المؤمنين، وهو القائل:

بني أمية إني ناصحٌ لكم فلا يبيتُ فيكم آمنة زُفرُ

بني أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا (7)

وقد هاجه جرير لسان حال قيس عيلان، ونعته بالجزية، والسكر، والقدارة، والبعد عن الخلافة في قوله:

قبح الإله وجوه تغلب كلها

شبح الحجيج وكبروا إهلا

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد

وبجبرائيل وكذبوا ميكا

والتغليبي إذا تنحنح للقرى

حك استه وتمثك الأمثالا

لولا الجزى قسم السواد وتغلب

في المسلمين فكنتم أنفالا (8)

فرد عليه الأخط:

ولقد جشمت جريرا أمرا عاجزا

ووهبت سوءة أمك الجهالا (9)

1. نقائض جرير والفرزدق:

بدأت (النقائض) بين جرير (10) والفرزدق (11) عام خمسة وستين، وانتهت بموت جرير والفرزدق عام عشرة ومئة. وهكذا عمرت خمساً وأربعين سنة، مما جعلها أكثر عدداً وأكثر أبياتاً، وأنضج فناً وأحفك بذكر الأيام والأحداث وذلك لفحولة الشاعرين وقوتهم ومعرفتهما التامة بدقائق قيس وتميم وغزارة مادتهما.

وعلى الرغم من تهاجيها فإنهما كانا يقدران فن بعضهما البعض، فقد قال الفرزدق في جرير، ما أخشيت ناحيته، وأشرد قافيته، والله لو تركوه لأبكي العجوز على شبابها، والشابة على أحبابها، ولكنهم هروه فوجدوه عند الهراش نابجا وعند الجراء قارحا. وقد قال بيتا لأن أكون قلته أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، وهو:

إذا غضبت عليك بنو تميم

حسبت الناس كلهم غضابا (12)

وسئك بشار: أي الثلاثة أشعر؟ فقال: لم يكن الأخط مثلها، ولكن ربيعة تعصبت له، وأفرطت فيه. وكانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق (13).

وقال جرير لرجل من طهية: أينا أشعر أنا أم الفرزدق؟ فقال له: أنت عند العامة، والفرزدق عند العلماء. فصاح جرير: أنا أبو حرزة! غلبته ورب الكعبة! والله ما في كل مئة رجل عالم واحد (14).

وقال جرير عن الفرزدق: «الفرزدق نبعة الشعر، والأخطل يجيد صفة الملوك، ويصيب نعت الخمر، وأنا نحرت الشعر نحرا» (15).

والواقع أن النقائض بين جرير والفرزدق كانت في أغلبها ذاتية ينتصر فيها كل منهما لنفسه، عن طريق توظيفه مفاخر قومه، ومثالب الآخر. ومن ذلك أن أبا عبيدة قال: وقف جرير بالمربد، وقد لبس درعا وسلاحا تاما، وركب فرسا. فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشي وسوارا، وقام ينشد بجرير، والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما. فلما بلغ الفرزدق لباس جرير السلاح والدرع قال:

عجبت لراعي الضأن في حطمية

وفي الدرع عبد قد أصيبت مقاتله

وهل تلبسُ الحبلَى السلاح وبطنها إذا انتطقت عبءٌ عليها تعادلُه

ولما بلغ جريراً أن الفرزدق في ثياب وشي قال:

لبستُ أداتي، والفرزدق لعبةً عليه وشاحاً كرجٍ وجلجله
أعدوا مع الحلي الملبأ فإنما جريراً لكم بعلٌ وأنتم حلائله (16)

وقال الفرزدق مفتخراً بقومه، وهاجياً جريراً وأباه وقومه، في قصيدته التي يسميها (الفصل) ورمى غدانة باللؤم والخور، ورمى جريراً بسرقة شعره، وفيها يقول:

ليس الكرامُ بناحليكَ أباهم حتى تُردَّ إلى عطية تُعتل (17)

ثم يرمي جريراً بإتيان الأتت، وبالزنا وبالحب لشربه المنى. فرد جريراً مفتخراً، ومعيها الفرزدق بالقيون، وبمقتل أبيه في كاظمة وفيها يقول:

أعدتُ للشعراء سماً ناقعاً فسقيتُ آخرهم بكأس الأول
لما وضعتُ على الفرزدق ميسمي وضعا البعيثُ جدتُ أنفَ الأخطل
وقال الفرزدق يفتخر بقومه:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعزُّ وأطول
بيتاً بناه لنا المليك وما بنى ملك السماء فإنه لا ينقل

فرد عليه جريراً ينقض دعاواه، وينعته بالقيين:

أخزى الذي رفع السماء مجاشعاً وبنى بناءك بالحضيض الأسفل
بيتاً يحمم قينكم بفنائهِ دنساً مقاعدُهُ، خبيث المدخل

وقد خرج جريراً والفرزدق مرة مرتدفين على ناقه، إلى هشام بن عبد الملك الأموي، وهو يومئذ بالرصافة. فنزل جريراً لقضاء حاجته، فجعلت الناقة تتلفت، فضر بها الفرزدق، وقال:

إلام تلتفتين وأنتِ تحتي وخيرُ الناس كلهم ألامي
متى تردي الرصافة تستريحني من التهجير والدبر الدوامي

ثم قال: الآن يجيء جريراً فأنشده البيتين، فيقول:

تلفت أنها تحت ابن قين إلى الكيرين والفأس الكهام
متى ترد الرصافة تحز فيها كخزيك في المواسم كل عام (18)

فجاءه جريراً، فأنشده الفرزدق البيتين الأولين، فرد عليه جريراً بالبيتين الأخيرين.

وعندما حجَّ سليمان بن عبد الملك وقدمت إليه أسرى الروم، جعل يدفعهم إلى وجوه الناس لقتلهم. وقدم لجريز رجل فضربه فأبان رأسه، ودفع إلى الفرزدق أسير فضربه فلم يؤثر فيه، فضحك الناس. وغضب الفرزدق، فأخذ يعتذر عن ذلك، فقال جريز يوبخه، ويتخذ من هذه الحادثة دليلاً على جبن الفرزدق، وأنه قين (حداد) لا محارب:

أكلفت قيساً أن نبا سيفُ غالبٍ	وشاعت له أحداثٌ في المواسمِ
بسيف أبي رغوان سيفٍ مجاشعٍ	ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالمٍ
ضربت به عند الإمام فأرعت	يداك، وقالوا: محدث غير صارمٍ
ضربت به عرقوب ناب بصوّرٍ	ولا تضربون البغي تحت الغمامِ
عنيفٌ بهز السيف قين مجاشعٍ	رفيقٌ بأخرات الفؤوس الكرامِ (19)

و(يوم صوعر) هو يوم معاقرة بين غالب بن صعصعة المجاشعي، والد الفرزدق، وبين سحيم بن وثيل الرياحي من يربوع، أيام عثمان بن عفان. وقد أسرف غالب في عقر النوق حتى غطى على عمل سحيم، فأنكر ذلك علي بن أبي طالب، وحرّم أكل لحومها، لأنها أهدت لغير الله. وقد أكثر الفرزدق من الفخر بهذا اليوم في شعره، فقال في قصيدة له:

فلا نقتل الأسرى ولكن نفكّهم	إذا أثقل الأعناق حمل المغارمِ
فهك ضربة الرّومي جاعلة لكم	أباً عن كليب أو أباً مثلك دارمِ
كذاك سيوف الهند تنبو ظباؤها	ويقطعن أحياناً مناط التمامِ (20)

وكان جريز يهجو الفرزدق بالزنا وينعته بالكذب والإختلاق، في مثلك قوله:

لقد ولدت أم الفرزدق فاجراً	وجاءت بوزوازٍ قصير القوائمِ
يوصلُ حبله إذا جنَّ ليله	ليرقى إلى جاراته بالسلامِ
أتيت حدود الله مذ أنت يافع	وشبت فما ينهاك شيب اللهازمِ
تتبّع في الماخور كل مريبة	ولست بأهل المحصنات الكرائمِ
تدلّيت تزني من ثمانين قامة	وقصّرت عن باع العلى والمكارمِ
هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا مداخل رجسٍ بالخبيثات عالمِ (21)	

فنفاه عمر بن عبد العزيز من المدينة.

وهكذا تدور (نقائض) جريز والفرزدق بين هذه المعاني الجزئية المحدودة، ذات المساس بشخصيتهما. ومن هنا كانت (نقائضهما) ذاتية لا قبلية، ومن أجل التفوق الفردي لأحدهما على الآخر.

وغالبا ما كانا يتناصان في هذه المعاني الجزئية، فيتبادلانها: فعندما يستغل جرير حادثة الرومي التي أخفق فيها الفرزدق، فإن الفرزدق يوظف حادثة صوهر التي تدل على كرم والده. وعندما ينعت جرير الفرزدق بأنه ابن قين، وأنه يتعاطى الموبقات، فإن الفرزدق بالمقابل ينعت جريرا بالضعف، واللؤم وإتيان الأت.

وكلاهما يعترف بما نسب إليه فلا دخان بلا نار فالفرزدق يعلم أنه ذو نسب رفيع، وأنه يستند إلى تراث حسب يفاخر به، بخلاف جرير الذي يعترف بضعته.

ولهذا كان يرى أن إجادته الشعر هي دليل للنسب الرفيع، فكان يقول عن نفسه إنه أشعر الناس، لأنه فخر بأبيه على لؤمه ثمانين شاعرا، وقارعهم به، فغلبهم جميعا⁽²²⁾ وكان أبو عمرو بن العلاء يشبه جريرا بالأعشى، والفرزدق بزهير، والأخط بالناطقة.

وعندما يهجو جرير الفرزدق ورهطه في مثل قوله في قصيدته:

لقد كنتَ فيها يا فرزدقُ تابعاً وریش الذنابی تابعٌ للقوادمِ
أجبناً وفخراً يا بني زبداستها ونحن نشبُ الحربِ شيبُ المقادمِ

فإن الفرزدق ينقض معانيه السابقة، ويرد عليه مفتخرا بقوة قومه تميم وبشجاعتهم، وبضبة أخواله، ثم يرمي جريرا بتعلقه بقيس وهو ليس من رؤوسها:

فما أنتَ من قيسٍ فتنبحُ دونها ولا من تميمٍ في الرؤوسِ الأعظمِ
إذا عجزَ الأحياءُ أن يحملوا دماً أناخَ إلى أجدائنا كلُّ غارمِ
ترى كلَّ مظلومٍ إلينا فرارُهُ ويهربُ منا جهدهُ كلُّ ظالمِ
فلا نقتلُ الأسرى ولكن نفكّهم إذا أثقلَ الأعناق حملُ المغارمِ⁽²³⁾

فإذا قارنا بين القصيدتين وجدناهما تتناصان ليس في الوزن العروضي والوزن والقافية فحسب، بل وفي المعاني الجزئية أيضا، فعندما ينعت جرير الفرزدق بالزنا والجبن، مستغلا حادثة الرومي، فإن الفرزدق بالمقابل ينقض أقواله هذه بشرف المحتد وبالكرم مقابل الجبن.

وقد بلغت قصيدة جرير أربعة وثمانين بيتا، بينما بلغت قصيدة الفرزدق مئة وخمسين بيتا. ودارت موضوعات قصيدة جرير حول المديح والنسيب والهجاء، دون الفخر إذ لم يجد فيه مقالا. وكذلك دارت موضوعات الفرزدق حول المعاني ذاتها، إلا أنه أضاف إليها الفخر لأنه يستند إلى تراث غني فيه.

وقد غلبت السلاسة على أسلوب جرير، وبخاصة في النسيب والسباب، إذ كان أرق طبعاً، وأشد سفها بخلاف أسلوب الفرزدق الذي غلب عليه الفخر وغلظة الطبع، فكان لشخصية كل منهما تأثيرا كبيرا على أسلوبيهما. ولهذا كثرت في أسلوب جرير عبارات السفه والبذاءة، بخلاف الفرزدق الذي لم يتورط في البذاءة لغلبة الفخر عليه، بينما كثر الغريب لديه، والخروج على مألوف أكبر من النحاة (علينا أن نقول وعليكم أن تصوبوا) الذين كانوا يحتجون بشعره في شواهدهم النحوية.

وعلى العموم فقد كان يمتاز جرير بقلّة فخره، إذ ليس لديه ما يفخر به، وبرقة أسلوبه وسلامته. ومرد ذلك

إلى تأثره بالإسلام، فاكتمسب شعره سيرة وشيوعا. كما يمتاز بالنسيب، وبراعة الهجاء، وقوة الحجة. بينما يمتاز الفرزدق بكثرة فخره وجزالة أسلوبه، وغلظة ألفاظه، وكأنما قدت من صخر. ولهذا كان يقول: «قد تمر عليّ ساعة، وقلع ضرس من أضراسي أهون علي من قول بيت من الشعر».

ولهذا قالوا عنه: إنه ينحت من صخر، ولهذا أيضا كان شعره وقفا على الخاصة والعلماء، محروما من الذيوع والانتشار، وإن لم يخل من الأبيات المأثورة. وقد حافظ شعره على الغريب الجاهلي حتى قال أبو عبيدة: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب.

وبالإجمال فإن نقائض جرير والفرزدق لها قيمة أدبية من حيث هذا الفن الشعري الذي سبكت فيه، بالإضافة إلى قيمتها التاريخية التي تطلعننا على كثير من نواحي حياة الشاعرين الشخصية، وحياة عصرهما الاجتماعية، وعلى كثير من أخبار العرب، وأيامهم وعاداتهم وأخبار الدولة الأموية التي عاشا في ظلها، مما يمكن أن يؤلف سفرا ضخما. ولم تقتصر مهاجمة الفرزدق ونقائضه على جرير وحده، فقد هاجى الأخطى والبغيث والطرماح وغيرهم.

يقول الفرزدق في قصيدته (الفصل) مناقضا للأخطى ومفتخرا بنسبه الشعري:

إن التي فقت بها أبصاركم وهي التي دفعت أباك، الفصيلُ
وهب القصائد لي النوايح إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجروكُ
والفحل علقمة الذي كانت له حُلُك الملوك، كَلَامُهُ لَا يَنْخُلُ⁽²⁴⁾

ولما استطار الهجاء بين الفرزدق وجرير، وصارت نقائضهما حديث الناس في المجالس والمنتديات وحلقات العلم، تعرض لهما بعض الشعراء المغمورين، طلبا للشهرة، مثل البغيث الذي كان يهاجي جريرا، فلما وقع الهجاء بين جرير والفرزدق انصرفا عنه، فتحرش البغيث بالفرزدق في قصيدة يقول فيها:

أشاركتني في ثعلب قد أكلته فلم يبق إلا رأسه وأكارعه
فدونك خصيه وما ضمت استه فإنك قمام خبيث مراتعه

وكان الفرزدق قد هجا بني ربيع حين قال:

أترجو ربيع أن تجي صغارها بخير، وقد أعيا ربيعاً كبارها
فلما سمع قول البغيث في بني كلب، حيث (أخذ) البغيث بيته الشعري:

أترجو كليب أن يجي حديثها بخير وقد أعيا كليباً قديمها

قال الفرزدق:

إذا ما قلت قافية شروداً تنخلها ابنُ حمراء العجان⁽²⁵⁾

كما التحم الفرزدق مع الطرماح بن حكيم الطائي الخزرجي، فقال الطرماح يهجو الفرزدق التميمي، مجردا قومه من المكارم.

تميمٌ بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبيل المكارم ضلت

فرد عليه الفرزدق ينقض دعاواه أو مزاعمه، وينعته بأنه عبد، في قصيدة يقول فيها:

لقد هتك العبد الطرماح ستره وأصلى بنار قومه فتصلت

2. نقائض الأخطل وجريز:

لم يكن الفحول الثلاثة (جريز، والأخطل، والفرزدق) من شعراء السياسة في العصر الأموي، وإن اتصلوا بالسياسة العليا للدولة، فقد كان جل أشعارهم لغايات قبلية وذاتية، فعاشوا في ظل الدولة الأموية يحملون نزعتهم الجاهلية وإن أخلصوا للأمويين أحيانا، كما فعل الأخطل. وقد اضطربت مواقفهم فنرى الفرزدق يمدح آل المهلب ثم يهجوهم، والأخطل يشيد بمآثر الأمويين ثم يندبهم ويتوعددهم. وكانوا يضمنون إلى غايتهم القبلية منفعتهم الشخصية، فشغلوا بالمدح والهجاء.

وقد انضم الأخطل⁽²⁶⁾ إلى الأمويين على قيس عيلان أعداء قومه التغلبيين ثم انضم إلى الفرزدق على جريز، لأن جريزا كان لسان القيسية على تغلب وكان الفرزدق تميميا.

وبدء اتصال الأخطل بالدولة الأموية أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري شب برملة بنت معاوية. فغضب أخوها يزيد، وسأل كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار، فأماله إلى الأخطل النصراني، فهاجم برأيته التي يقول فيها:

ذهبت قريش بالمكارم والعلی واللؤم تحت عمائم الأنصار

فطلب الأنصار معاقبة الأخطل، فحماه يزيد بن معاوية، فهدد الأنصار معاوية، فدافع الأخطل عنه، وصار من ذلك الحين بوق بني أمية، لا سيما وأن في هذا الموقف رعاية لمصالح قومه أحلاف الأمويين، كما أن فيه رعاية لمصالحه الشخصية، حتى أنه لقب بـ (شاعر بني أمية) و(شاعر أمير المؤمنين) في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

وموقف الأخطل من بني أمية ومدحه لهم ساقاه إلى هجاء خصومهم وخصومه في آن، حيث نشب الهجاء بينه وبين جريز. وسبب ذلك أنه لما بلغ الأخطل تهاجي جريز والفرزدق قال لابنه مالك: انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما وتأتيني بخبرهما. فأنحدر مالك حتى لقيهما وسمع منهما، ثم أتى أباه.

فقال له: كيف وجدتهما؟ قال: وجدت جريزا يغرف من بحر، ووجدت الفرزدق ينحت من صخر. فقال الأخطل: الذي يغرف من بحر أشعرهما. وفضل جريزا على الفرزدق.

فلما قدم الأخطل على بشر بن مروان أخي الخليفة في الكوفة، بعث إليه قوم الفرزدق بهدايا وقالوا له: لا تعن على شاعرنا، واهج هذا الكلب الذي يهجو بني دارم، فإنك قد قضيت على صاحبنا، فقل أبياتا واقض لصاحبنا عليه، فقال الأخطل:

أجريز إنك والذي تسمو له كأسيفة فخرت بحدج حصان

فرد عليه جريز ومنذ ذلك الوقت اشتعل الهجاء بينهما. وكان الخلفاء يذكرون نار الهجاء بين الشعراء ليشغلوا

الشعراء والقبائل بأنفسهم، فلا يفرغوا لمناقشة السلطة.

قال الأخطى في قصيدة ينسب فيها، ويسم النساء بالخداع، وضعف الحلووم وكثرة المطال، والتعلق بالشباب دون المشيب، ثم وصل النسب بالفخر ثم أخذ في هجاء بني كليب رهط جرير:

كذبتك عينك أم رأيت بواسطٍ غلَسَ الظلام من الرباب خيالا
أبني كليب إن عمي اللذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا
ولقد جشمت جريرُ أمراً عاجزاً ومنحت سؤة أمك الجهالا (27)

فنقض جرير معانيه، ووصل نسيبه بهجاء تغلب قوم الأخطى:

حيي الغداة برامة الأطلالا رسماً تحمّل أهله فأحالا
عبدوا الصليب وكذبوا بمحمدٍ وبجبرئيل وكذبوا ميكا
لا تطلبنّ خوولةً في تغلبٍ فالزنج أكرم منهم أخوالا
والتغلبى إذا تنحنح للقرى حك استه وتمثّل الأمثالا
حملت عليك حماة قيس خيلا شعثاً عوابس تحمل الأبطالا
ما زلت تحسب كل شيء بعدها خيلاً تشدّ عليكم ورجالا (28)

ثم يهجو أم الأخطى، ويذكر يوم البشر لقيس على تغلب، ويأخذ في الفخر بقومه، حتى يصل إلى مجاشع فيهجوها أيضاً.

وقال الأخطى في قصيدة ينسب فيها، ويصف ناقته ثم يهجو جريرا ويفضل الفرزدق ورهطه عليه:

لما جرى هو والفرزدق لم يكن نزقا، ولا لمدى المنيف صبورا
أزمت أن بني كليب سادة قبحا لذلك معشرا مذكورا (29)

ثم يعيره بهزيمة قيس يوم (الحشاك) وبأسر جده الخطفى يوم (إراب)، أسره الهذيل التغلبي، ثم من عليه. فأجابه جرير ونسب وفخر بنفسه ناقضا معانيه:

رحل الخليط فزايлок بكورا وحسبت بينهم عليك يسيرا
وفخر بمضر:

الضاربون على النصارى جزيّة وهدى لمن تبع الكتاب ونورا

وقال الأخطى يهجو جريرا وقومه:

مازال فينا رباط الخيل معلمة وفي كليب رباط الذلّ والعار

قومٌ إذا استبح الأضيافَ كلبهم قالوا لأهمهم بولي على النار (30)

فأجابه جرير ناقضا معانيه، ومفتخرا بقومه:

قومي تميمٌ هم القوم الذين هم ينفون تغلب عن بحبوبة الدار (31)

وقال الأخط في قصيدة يهجو فيها يربوعا، قوم جرير، ويرميهم بالهوان ويرمي نساءهم بالرجس والفجور، فيجيبه جرير ناقضا معانيه، مفتخرا بتميم وملفتا إلى تغلب:

لقيتم بالجزيرة خيل قيس فقتلتم: مار سرجس لا قتالا

فلم أر خيلكم صبرت لخيلى ولا أغنت رجالكم رجالا

أبعل التغلبية لا تطأها فلا دنيا أصبت ولا جمالا

وهكذا نرى أن معاني الأخط في هجاء جرير تدور حول هزائم قبيلة جرير في حروبها، وحول ضعف جرير وهوانه. بينما تدور نقائض جرير للأخط حول نصرانية الأخط وقومه وجبنهم وبخلهم ونعته تغلب بالذل والهوان، ومن ذلك قول جرير مفتخرا بمجد مضر قبيلة الخليفة:

إن الذي حرّم المكارم تغلباً جعل النبوة والخلافة فينا

مضرٌ أبي وأبو الملوك فهل لكم يا خزر تغلب من أب كابيننا

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلي قطينا

فلما بلغ عبد الملك بن مروان بيت جرير الأخير قال: ما زاد ابن المراغة على أن جعلني شرطيا. أما إنه لو قال: لو شاء ساقكم إلي قطينا، لسقتهم إليه.

والدراسة التفصيلية لإحدى المناقضات تظهر لنا التناص الذي يأخذه اللاحق عن السابق: ففي قصيدة الأخط التي مطلعها:

خفّ القطيف فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غير (32)

أجابه جرير بقصيدة مطلعها:

قل للديار: سقى أطلالك المطر قد هجت شوقاً فماذا تنفع الذكر؟

ولما كان الأخط هو البادي فإننا سنتخذ قصيدته أصلاً نقيس عليه نقيضة جرير في الأشكال والمضامين.

1. النسب هو مطلع القصيدتين:

وهو يتساوى في عدد الأبيات في كليتهما. لكن الأخط يمتاز بتتبعه النسوة المرتحلات، على طريقة زهير بن أبي سلمى. ثم في وصف النساء، وطبيعتهن التي تقوم على الدلال، والعزوف عن المشيب والعبث بالرجال حتى ينتهي إلى مدح الخليفة، غرضه الثاني:

إلى امرئ لا تعرينا نوافله أظفره الله، فليهنأ له الظفر

بخلاف جرير الذي كان تقليدياً في مطلعته، حيث دعا للديار بالسقيا، ووقف يودع المسافرين بقلبه، وينظر إليهن من بعيد. لكنه لم يتابعهن كالأخط. وعني بالديار. واقتبس من الأخط شطر بيته:

يا بعد منظرهم ذاك الذي نظروا

وإذا كان طابع شعر النسب عند الأخط هو الصنعة والتجويد المتد، فإن طابع نسب جرير هو انفعال الشاعر المضطرب السريع.

2. الغرض الثاني في القصيدتين هو مدح الخليفة:

وقد انفرد به الأخط وهذا طبيعي، إذ كان الأخط شاعر الحكومة الرسمي. وقد جمع في مدحه بين أسلوب الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي: فم أسلوب الشعر الجاهلي مدح الخليفة بالكرم والشجاعة واليمن والحزن ومضاء العزيمة مستخدماً في ذلك صوراً بلاغية من الإستعارات والكنائيات والتشبيهات. ومن الأسلوب الإسلامي مدح الخليفة بحسن السياسة، وإخضاع المتمردين، وتدبير الفتوح، ومدح بني أمية فمنهم الأسرة المالكة. وقد أجاد الأخط فن المديح حتى صار مثلاً في الجزالة وإحكام التصوير، بخلاف جرير الذي لا نجد له مديحاً إلا ما لا يس الفخر.

3. الغرض الثالث هو:

الفخر وهو ضئيل عند الأخط، لأنه لا يعتمد على تراث قديم. وفيه امتنان على الأمويين كما في قوله:

بني أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم أووا وهم نصروا

ثم يحذر عبد الملك من القيسية وزعيمها: (زفر بن الحارث) ويذكر معونة تغلب لبني أمية في موقعة (مرج راهط):

بني أمية إنني ناصح لكم فلا يبيت فيكم أمناً زفر

واتخذوه عدواً إن شاهدته وما تغيب من أخلاقه دعر

بخلاف جرير الذي جلى في الفخر، ووجد في مآثر قيس وتميم مادة يستقي منها، ويحسن استخدامها. ولعل الفخر والهجاء هما مجالا جرير في نقيضته. فقد افتخر بقيس وقريش وخندف والدين، حيث يقول:

قيس وخندف أهل المجد قبلكم لستم إليها ولا أنتم لها خطر

نرضى عن الله. إن الناس قد علموا أن لن يفاخرنا من خلقه بشر

4. أما الهجاء فقد شغل حيزاً كبيراً في النقيضتين:

ووقف كل من الشاعرين بالمرصاد للآخر، ينهشه. وتعدى الهجاء إلى قوم المهجو، وإلى نسائه فقد هجا الأخط قيس عيلان عامة وخص بني سليمان بنصيب، فرماهم بالغدر والضلال. ثم من على الخليفة بقتلهم عمير بن الحباب السلمي يوم (الحشاك):

يعرفونك رأس ابن الحباب وقد
ثم التفت إلى كليب هاجيا:

أما كليبُ بنُ يربوع فليس لهم
عند التقارط إيرادٌ ولا صَدْرُ
والسائلون بظهر الغيب: ما الخبر؟
فيتقدم جرير ناقضا معانيه واحداً واحداً، فهو يهجو قيس عيلان بالجنب:

ضجوا من الحرب إذا عضت غواربهم
وقيس عيلان من أخلاقها الضجر
ويعير تغلب بما نكل بهم القيسيون:

رجسٌ يكون إذا صلّوا، أذأنهم
قرعُ النواقيس لا يدرون ما السور؟
الظاعنون على العمياء إن ظعنوا
والسائلون بظهر الغيب ما الخبر؟
والآكلون خبيث الزاد وحدهم
والنازلون إذا وارا هم الخمر

ومن الواضح استفادة جرير من معاني الأخط، وتناصه المباشر معه، وعلى الخصوص في أبياته السابقة (الآخذون... الظاعنون... الآكلون... النازلون... السائلون... الخ). وهذه موازنة لمعاني الأخط، وعدم ابتكار الجديد، من قبل جرير، في هذا المجال.

وعندما وصل الأخط في هجائه، إلى بني غدانة بن يربوع إخوة كليب يشبههم بصغار الغنم القذرة، ويصفهم بالبخل والجنب والقذارة ويصف نساءهم بالرجس والدنس، فيقول:

وما غدانة في شيء مكانهم
الحابسو الثاء حتى يفضل السور
صفر اللحي من وقود الأدخات إذا
رد الرقاد وكف الحالب القرر
ثم الإياب إلى سود مدنسة
لا يستحين إذا ما احتكت النقر
وأقسم المجد حقاً لا يحالفهم
حتى يحالف بطن الراحة الشعر

فيرد عليه جرير بالغمز في نساء تغلب وتعييرها بشرب وتعييرها بشرب الخمرة، وإتيان الخنازير:

والتغلبية في ثنيي عبايتها
بَطْرُ طويل، وفي باع ابنها قصر
الضاحكون إلى الخنزير شهوته
يا قبحت تلك أفواها إذا كثروا

أحيائهم شر أحياء وألأمه والأرض تلفظ موتاهم إذا قبروا

ثم يختم جرير نقيضته ببيت كبيت الأخط في معناه: فإذا كان المجد بريئاً من بني غدانة فإن اللؤم حليف تغلب:

يا خَزَرُ تغلبَ إنَّ اللؤمَ حالفكمُ ما دام في ماردِينِ الزيتِ يُعْتَصَرُ

ظاهرة التناس في النقائض الأموية:

الملخص:

إذا كان التناس يعني التفاعل النصي بين النص المائل والنصوص الغائبة التي أسهمت في نسيجه، وإذا كانت (النقائض) تعني أن يلتزم الشاعر الثاني معاني الشاعر الأول ووزن قصيدته العروضي، وقافيتها ورويها فيردها عليه، ويزيد فيها. فإن هذا يعني أن (النقائض) تقع في صلب التناس أو أنها التناس بعينه لأن إسهام الشاعر الأول في قصيدة الشاعر الثاني هو أكبر من إسهام الشاعر الثاني فيها. صحيح أن الشاعر الثاني فتق المعاني وفرعها وجاء يصور شعرية جديدة ولكنه دوما ينظر إلى معاني الشاعر الأول وإلى صورته ووزنه الشعري وقوافيه. مما يجعلنا نقول إن إسهام الشاعر الأول في قصيدة الشاعر الثاني هو أكبر من إسهام الشاعر الثاني في قصيدته.

التناس في النقائض الأموية:

للنقائض الأموية قيمة تاريخية وفنية، بما كان لها من صلة بالسياسة العامة للدولة الأموية التي قامت على القبلية والانتصار لبعض القبائل على غيرها. كما أثارت هذه النقائض حركة شعرية واتجاهها نقديا قسم العلماء والأدباء واللغويين فرقا، وجعل من شعراء النقائض أنفسهم نقادا لبعضهم بعضا، حتى شغل العصر بشعر الفحول وبنقائضهم الشعرية التي كانت أشبه بصحافة يومية تظهر فيها أخبار العرب وأيامهم ومفاخر بعض القبائل ومخازي بعضها إضافة إلى تجسيد العيوب الشخصية وتصوير الانتصارات الذاتية لكل من الشعراء المتناقضين.

وقد كانت (النقائض) فنا مستقلا في تاريخ الشعر العربي، جمع جميع فنون الشعر العربي من نسيب وهجاء ومدح وفخر. وكانت لها أهمية لغوية إذ أظهرت مفردات لغوية جديدة أكسبت المعاجم مادة غزيرة وضعت ذخيرة نافعة أمام الشعراء وغيرهم.

كما يمكن اعتبار النقائض وثيقة تاريخية تصور الحياة الاجتماعية في ذلك العصر، كما تصور عادات العصر وتقاليده وأخلاقه وقد أمدت سوق المربد الأدبي بمادة شعرية غزيرة هي أضخم من مادة سوق عكاظ في الجاهلية، لأنها الحديث الصحفي اليومي الذي يصور الحياة السياسية في اضطراب أحزابها المتعددة (الخوارج، والشيعة، والزبيريين، والموالي، والأمويين). وتنافسها على السلطة، كما يصور الحياة الاجتماعية في تبدل القيم الجاهلية والإسلامية، حين انتقلت عاصمة الملك من الحجاز إلى الشام، حيث الدعة والملك والاستقرار الحضاري والقيم الجديدة التي غالبا ما تنافي القيم القديمة.

وقد تجلّى التناس في النقائض في عدة أساليب منها:

1. موازنة المعنى:

حيث يضع الشاعر الثاني من معاني الفخر أو الهجاء ما يناظر معاني الشاعر الأول، كما في قول الأخطل يهجو جريرا:

إخسأ إليك كليب إنَّ مجاشعاً وأبا الفوارس نهشلاً أخواب
وإذا قذفت أباك في ميزانهم رجحوا، وشال أبوك في الميزان

يفضل نهشلا ومجاشعا (من دارم قوم الفرزدق) على بني كليب (رهط جرير)، ويرميهم بالتخلف عن دارم. فقال جرير يفضل بني شيبان على تغلب (رهط الأخطل) ويغمره بالرشوة التي رشاه بها ابن عمير بن عطار، وكانت زقا من الخمر:

يا ذا العباءة إنَّ بشراً قد قضى ألا تجوزَ حكومةَ النشوانِ
فدعوا الحكومةَ لستُم من أهلها إنَّ الحكومةَ في بني شيبانِ⁽³³⁾

2. توجيه المعنى:

وذلك بأن يفسر الشاعر الثاني المعاني ويوجهها الوجهة التي يراها في صالحه. من ذلك ما فسر به الفرزدق موقف جرير مع عيلات بأنه يبيع للأهل وارتزاق ورشوة، حيث قال:

فما أنتَ من قيسٍ فتنبَحَ دونها ولا من تميمٍ في الرؤوسِ الأعظمِ⁽³⁴⁾
فرد عليه جرير بقوله:

وإني وقيساً يا بنَ قَيْنٍ مُجاشعٍ كريمٌ أصفي مدحتي للأكارمِ
وقيسٌ هم الكهف الذي نستعده لدفع الأعادي أو لحمل العظامِ⁽³⁵⁾

ومن ذلك أيضاً اضطراب سيف الفرزدق في ضرب عنق الرومي، مما أضحك الناس. وقد استغل جرير الحادثة، فغير الفرزدق بها، فرد الفرزدق موجهها المعنى لصالحه، حيث قال:

فلا نقتل الأسرى ولكنَّ نفكَّهم إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارمِ
فهكُ ضربةُ الرومي جاعلةٌ لكم أبا عن كليبٍ أو أبا مثك دارمِ
كذاك سيوفُ الهند تنبو ظبأتها ويقطعنَ أحياناً مناطَ التماثِمِ⁽³⁶⁾

يريد الفرزدق أنهم قوم لم يعتادوا قتل الأسرى حتى يبرعوا في قتلهم، وإنما هم يفكون الأسرى، ويحملون فدائهم.

3. تكذيب المعنى:

وذلك بأن يكذب الشاعر الثاني دعاوى الشاعر الأول في معانيه فيردها من ذلك أن جريرا قال في هجاء الراعي:

إذا غضبتُ عليك بنو تميمٍ حسبتَ الناسَ كلَّهم غضايًا
فرد عليه العباس بن يزيد الكندي مكذبا معناه، بقوله:

لقد غضبتُ بنو تميمٍ فما نكأتُ بغضبتها ذبابا
لو اطلعَ الغرابُ على تميمٍ وما فيها من السوءِ آتِ شابا

4. قلب المعنى:

وذلك بأن يأخذ الشاعر الثاني معنى الشاعر الأول فيقبله لصالحه، من ذلك أن الأخطل لما هلك قال جرير:

وزار القبور أبو مالكٍ فأصبح أهونَ زوارها

أخذ الفرزدق المعنى فقبله لصالحه ضد جرير، وقال:

وزار القبور أبو مالكٍ برغم العداة وأوتارها

ومن ذلك أيضا أن جرير عندما ماتت زوجته أم حذرة رثاها بقصيدة رقيقة مطلعها:

لولا الحياء لعادني استعبارٌ ولزرتُ قبرك، والحبیبُ يُزارُ

ولَّهتِ قلبي إذ علتني كبرّةٌ وذوو التمام من بنيك صغارُ

كانت مكرمة العشير ولم يكن يخشى غوائل أم حذرة جارٍ (37).

أخذ الفرزدق هذه المعاني فقبلها ناقضا إياها وساخرا من جرير وزوجه وعاكسا هذه المعاني بما يضادها:

كانت منافقة الحياة وموتها خزيّ علانية عليك وعارُ

فلئن بكيت على الأتاف لقد بكى جزعا غداة فراقها الأعيارُ

تبكي على امرأة وعندك مثلها قعساء ليس لها عليك خمار (38)

ويمكن تلمس خصائص (النقائض) الأموية في الأمور التالية:

1. ظهور السمات الإسلامية في هذه النقائض:

لا سيما والقوم قريبو عهد بالإسلام، وقد ظهرت هذه السمات الإسلامية في شعر الفرزدق، فقد أشار في شعره إلى قصص من القرآن الكريم، وما فيه من صلاة وصوم وحساب وبعث.

ومن ذلك قوله:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

من قوله تعالى: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا 27 رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا)

سورة النازعات، الآية: 27

وقول الفرزدق:

ضربتُ عليك العنكبوتُ بنسجها وقضى عليك به الكتابُ المنزلُ

من قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ

الْعَنَكُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

سورة العنكبوت، الآية: 41

وقول الفرزدق:

كما بعث النبي محمداً على فترة، والناس مثك البهائم

من قوله تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

سورة المائدة، الآية: 18

وقول الفرزدق:

نصرت كنصر البيت إذ ساق فيله إليه عظيمُ المشركين الأعاجمُ

من قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

سورة الفيل، الآية: 1

وقول الفرزدق:

فكان كما قال ابنُ نوح سارتقي إلى جبلٍ من خشية الله عاصم

من قوله تعالى في قصة ابن سيدنا نوح حين عصى أباه وقال: «سأوي إلى جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله».

أما جرير فقد كان أكثر تأثراً بالإسلام. وقد كان يفخر بالإسلام في مهاجته الأخطل النصراني، كما في قوله:

قَبَحَ الإلهُ وجوهَ تَغْلِبَ كلِّما شَبَحَ الحجيْجُ وكَبَّرُوا إهلالاً

عبدوا الصليبَ وكذَّبوا بمحمدٍ وبجيرئيك وكذَّبوا ميكالاً (39)

ومن ذلك أيضاً قوله في رثاء زوجته، حيث تظهر السمات الإسلامية واضحة جلية:

صَلَّى الملائكةُ الذين تَخَيَّرُوا والصالحون عليكِ والأبرارُ

وعليك من صلوات ربك كلما نَصَبَ الحجيْجُ ملبدين وغاروا (40)

أما الأخطل فعلى الرغم من نصرانيته، فإنه ليس من المعقول أن ينجو من تأثير الإسلام في شعره، لأنه يحيا في بيئة إسلامية، ويعيش في بلاط الخلفاء المسلمين فكان لابد أن تدخل هذه المؤثرات الدينية المحيطة به في شعره، فمن ذلك قوله في مدح الخليفة عبد الملك بن مروان:

إلى إمامٍ تُغادينَا نوافلهُ أظفره الله فليهنأ له الظفرُ

الخانض الغمر، والميمون طائرهُ خليفة الله يُستسقى به المطرُ

2. الخيال الخصب الذي يبتكر التشبيهات والاستعارات والكنائيات:

من ذلك ما يصف به جرير (جعث) أخت الفرزدق، من فاحش الصور المبالغ فيها كما في قوله:

نسيتم عقر جعثَ واحتبيتُم ألا تبتاً لفخرِك بالحبات

وقد دميّت مواقعُ ركبتيها من التبراك، ليس من الصلاة

تبيتُ الليل تسلفُ إسكناتها كدأب الترك تلعب بالكرات

وحط المنقري بها فقرتُ على أم القفا، والليل عاتٍ (41)

ومن ذلك أيضاً ما يخترعه الفرزدق من قصص غرامية، ومن تصوير مبالغ فيه لنسوة كليب، كما في قوله:

جزعتُ إلى هجاء بني نُميرٍ وخليتُ استَ أمكِ للرماة

وتمسي نسوةً لبني كليب بأفواه الأزقة مقعيات (42)

3. مثل هذه المبالغات في التصوير تؤدي إلى الإفحاش في الهجاء.

وهي ظاهرة لم تكن معروفة في النقائض الإسلامية ولا حتى في النقائض الجاهلية. وهي غريبة تنكرها تعاليم الدين والأخلاق. فهتك الحرمات ونهش الأعراض، والتشنيع بالمخازي، والبذاءة الفاضحة كلها مما لم تكن تعرفه النقائض السابقة. وقد نال (جعث) أخت الفرزدق من هذا التشنيع الشيء الكثير، كما نال أم جرير وزوجه. وقد استبعدنا في الاستشهاد والتمثيل كل الأبيات التي فيها فحش وإفحاش. يقول الفرزدق هاجيا جريرا، وناعتا أمه بالزنا:

أزرى بجريك أن أمك لم تكن إلا اللثيم من الفحولة تفحل

يبكي على ديمِ الديار وأُمُّه تعلو.....وتسفل (43)

ولم يكن جرير دون صاحبه سفاهاً، وإنما كان أشد فحشا وإفحاشاً. ربما ذلك لهوان حسبه، أو شدة انفعاله، حتى بات لا يحتمل من أحد غمزا أو لمزا، فإذا تعرض له أحد أنشب أظفاره ومخالبه فيه دون رحمة أو شفقة. فهو يهجو الفرزدق عن طريق أخته (جعث):

بات الفرزدق يستجير لنفسه وعجانُ جعثَ كالطريق المعمل

أسلمت جعثَ إذ يجرّ برجلها والمنقري يدوسها بالمنشل

ويقول في رهط الفرزدق:

قامت سُكينةُ للفحول ولم تتَّم بنتُ الحنات لسورة الأنفال (44)

وكان الأخطى دون صاحبيه فحشا وسبا، ولعل ذلك خشية التعرض لأعراض المسلمين باعتباره نصرانيا فقل في

شعره الإفحاش، كما في قوله يهجو بني كليب رهط جرير:

فلا تدخل بيوت بني كليب ولا تقرب لهم أبداً رحلاً

ترى فيها لوامع مبرقات يكذب..... بالحدق الرجال

على الرغم من أن التعريض أهجاً من التصريح، لاتساع الظن في التعريض وشدة تعلق النفس به، والبحث عن معرفته وطلب حقيقته، كما يقول ابن رشيق في العمدة (45).

4. الفخر بالأيام بين القبائل:

وذكر فضل القبائل ومحامدها وقد برع في ذلك الفرزدق الذي كان يستند على تراث عريق من الحسب الرفيع، ولهذا كان كثيراً ما يفخر برجاله الأمجاد، كما في قوله:

بيتاً زارة محتب بفنائهم ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

يلجون بيت مجاشع وإذا احتبوا برزوا كأنهم الجبال المثل

الأكثرون إذا يعدّ حصاهم والأكرمون إذا يعدّ الأول (46)

5. نقض المعاني وتكرارها وإيرادها في صور مختلفة:

ومن هنا غلبة التناس على هذه النقائض حيث يأخذ اللاحق دوماً عن السابق قلباً أو عكساً أو توجيهها للمعاني لصالحه، فحين يقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لها بيتاً دعائمه أعز وأطول

يأخذ جرير هذا المعنى فينقضه ويوجهه لصالحه في قوله:

أخزى الذي سمك السماء مجاشعاً وبنى بناءك في الحضيض الأسفل

وعندما يقول الفرزدق في وراثته الشعر:

وهب القصائد لي النوابع إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجزول (47)

يأخذ جرير هذا المعنى فينقضه بقوله:

لما وضعت على الفرزدق ميسمي وضعا البعيت جدعت أنف الأخطل

أعددت للشعراء سمّاً ناقعاً فسقيت آخرهم بكأس الأول

إنني انصبت من السماء عليكم حتى اختطفتك يا فرزدق من عل (48)

6. وقوة الجدل هذه والتناس في المعاني:

وتكرارها أدى إلى تحسين الأسلوب وإضفاء طابع الجزالة على النقائض الأموية والجزالة تظهر في مقابلتها بالشعر

الغزلي أو السياسي في الفترة ذاتها، فقد امتاز الشعر الغزلي بالركة والسهولة، وامتاز الشعر السياسي بالوضوح، بينما امتازت النقائض الأموية بالصنعة كما في قول الأخطك في رائيته التي تشبه حوليات زهير بن أبي سلمى:

حُشدٌ على الحقِّ، عيَّافو الخنا، أنْفُ
وإنَّ المَّتَّ بهم مكروهةٌ صبروا
شُمسُ العداوةِ حتى يُستقَادَ لهم
وأعظمُ الناسَ أحلاماً إذا قدروا (49)

كما تتجلى هذه الجزالة في شعر الفرزدق، كما في قوله:

أحلامنا تزنبُ الجبالَ رزانةً
وتخالنا جنّاً إذا ما نجهلُ

وضمن إطار هذه الخصائص العامة للنقائض الأموية، فإن كل شاعر من شعرائها الثلاثة ينفرد بسمات خاصة نابعة من شخصيته النفسية والثقافية تميزه عن سواه فجرير مثلاً أثر في شعره هوان أسرته، وفقر قومه، بخلاف الفرزدق الذي كان واقعه مثار فخره واعتزازه لأنه يستند إلى تراث ماجد.

ومن هنا التفت جرير إلى الهجاء المقذع ربما لينفخ عن عقدة الضعة والهوان التي يعانها في حياته وسخطه حمله على الإفحاش في الهجاء وذكر العورات والتعرض للمحارم. وهذه مسألة فنية فقد كان الرجل صالحا يخشى الله واليوم الآخر، وقد هجا الفرزدق بالزنا ومخالفة الأخطك النصراني كما هجا الأخطك بالكفر وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير.

وحسن إسلام جرير هذب نفسه فجود الرثاء ورقة طبعه جعلته يجود النسيب حتى لقد أسف على أن شغله الهجاء عن أن ينسب نسيبا تحف به العجوز إلى شبابها.

وحاجته إلى المال والرعاية حملته على المديح، فمدح ابن الزبير والحجاج وبنو أمية وقيسا ليعيش ملحوظ المكانة. وكان قد أوصى بنيه وصية فنية، «إذا مدحتهم فلا تطيلوا المدحة، وإذا هجوتهم فخالفوا» وكان يقول: «إذا هجوت فأضحك».

ومن حيث الصياغة الفنية كان جرير محافظا على التقاليد الفنية أكثر من الفرزدق، إذ كان يترسم خطا الجاهليين في بنية القصيدة، فيبدأ بالنسيب - على عادتهم - قبل أن يصل إلى غرضه في النقيضة من المهاجاة.

وعلى الرغم من ذلك فسمه شعره الأساسية هي السيرة لسهولة، فقد جرى أكثر شعره على السنة الناس، وظفر ببعد الصيت أكثر من زميليه، فكان كما قيل عنه أشعر الناس، كما في قوله:

فغضَّ الطرفُ إنك من نُميرٍ
فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

وقوله:

لولا الحياءُ لهاجنِي استعبارُ
ولزرتُ قبركِ والحبیبُ يُزارُ

وغير ذلك من الأبيات السائرة مجرى الأمثال كثير.

وأما الفرزدق فقد نشأ في أسرة غنية، ذات مآثر معروفة وقوم ذوي حسب ونسب، فاتخذ من ذلك مادة للفخر، وكان يدعي زعامة تميم، ويحامي عنها كما في قوله:

أروني مَنْ يقوم لكم مقامي إذا ما الأمرُ جَلَّ عن العتاب (50)

وكان في طبعه كبر وعنجهية جاهلية جعلته أكثر تحللاً من شعائر الدين، وأميك إلى الحرية وتجاوز الحدود والاجترار على المحرمات. وقد هدد معاوية الخليفة الأموي الأول وفخر عليه، وهجا بعض الخلفاء والولاة فقضى شطرا من حياته منفيا مطرودا فهو يخاطب معاوية بجرأة بالغة في قوله:

أبوك وعمي يا معاويّ أورتنا
فما بال ميراثِ الحناتِ أكلته
تراثاً فيحتارُ التراثُ أقاربهُ
وميراثُ حربٍ جامدٌ لك ذائبهُ
فلو كان هذا الأمرُ في جاهليةٍ
علمتَ مَنْ المرءُ القليلُ حلائبهُ

ولأنه يجتاز تراثاً من النسب العريق فقد كان بارعا في الفخر، وهو يوظف هذا التراث في شعره حيث يفخر بنفسه وبقومه:

وقد علم الجيران أن قدورنا
نعبجُ للضيقاتِ في المحلِّ بالقرى
ضوامنُ للأرزاق، والريحُ زفرفُ
قدوراٌ بمعبوطِ تُمْدُ وتُغْرِفُ
ترى الناسَ ما سرنا يسيرون خلفنا
وإنْ نحنُ أومأنا إلى الناسِ وقّفوا (51)

من حيث الصياغة الفنية فقد كان الفرزدق فخم العبارات ضخم الألفاظ غريبا يتجاوز قوانين النحو المشهورة حتى إنه قال للنحويين: «علينا أن نقول وعليكم أن تصوبوا». وكان كثيرا ما يهجم على موضوعه دون مقدمات في النسيب أو غيره، وحتى في النسيب فقد كان نسيبه جافيا غليظا متأثرا بطابع الفخر الذي لاءم طبعه.

وأما الأخطك فهو من قبيلة تغلب التي ظلت على مسيحياتها ولم تسلم ففرضت عليها الجزية. ولكنها عاشت في كنف الدولة الإسلامية، تنافس قبيلة قيس عيلان، وتحتمي بالخلفاء. وكان الأخطك شاعرا في البلاط الأموي. وقد أجاد مدح الخلفاء، وجعله عبد الملك بن مروان شاعره الخاص.

ولأنه كان يشرب الخمرة، ويكثر منها، فقد أجاد في وصفها متتلما في ذلك للأعشى ومستعصيا بها عن النسيب في مطالع قصائده. وكان يدخل على عبد الملك والصليب في عنقه ولحيته تقطر خمرا فيقول:

إذا ما نديمي علني ثم علني
خرجتُ أجرُ الذيلِ زهواً كأنني
ثلاثَ زجاجاتٍ لهن هديرُ
عليك، أمير المؤمنين أميرُ

ولم يتورط الأخطك في الفحش والإقذاع شأن زميليه. ولعل ذلك بسبب اتجاهه بشعره إلى مدح الخلفاء والأمراء فلم يشأ أن يسف ويقذع، أو لكونه نصرانيا لا يجرؤ على التشنيع بالنساء المسلمات لأن في ذلك حرجا وعدوانا على مكانة الدولة الإسلامية أو لعله توقر منه، لا سيما وأن مدرسته الفنية لم تتورط في الفحش والبذاءة.

هذا كله ضيق المجال أمامه في النقائض والمهاجاة والفخر فعوض ذلك بالمديح ووصف الخمر والتصوير الحسي سمة مدرسته الفنية ومن شوارد أبياته في بني كليب قوله:

قومٌ إذا استنبجَ الأضيافَ كلبهم
قالوا لأهمهم: بولي على النارِ

ومن حيث الصياغة الفنية فقد كان الأخطى من عبدة الشعر وصناعه وكأنما هو امتداد للمدرسة الأوسية التي من شعرائها: أوس بن حجر، وزهير بن أبي سلمى، وكعب بن زهير، والحطيئة وغيرهم. وقد اشتهرت هذه المدرسة بالتجويد الفني وتهذيب القصائد، حتى لقد كانت القصيدة تمكث عند زهير حولا كاملا، يعيد فيها النظر ويقوم منادها، ولهذا كانت قصائده تدعى بـ(الحوليات) وكذلك كانت قصائد الأخطى من عمل العقل الصانع، لا الإشراف والإلهام وحده. وفيها تبدو حكمة العقل، وأناة الصنعة بخلاف سهولة قصائد جرير أو فخامة قصائد الفرزدق. وهكذا يشترك الشاعر الأول في (نظم) قصيدة الشاعر الثاني، وهذا هو التناس.

الهوامش:

1. انظر: إحسان النص - العصبية القبلية في الشعر الأموي - دار الیقظة، دمشق، د.ت.
2. الأغاني ص 2/185.
3. مروج الذهب ص 2/234.
4. نفسه ص 2/234.
5. الدينوري - الأخبار الطوال ص 162.
6. نفسه ص 162.
7. نقائض جرير والأخطى ص 156.
8. نفسه ص 97.
9. نفسه ص 81.
10. جرير (33هـ-114هـ) شاعر أموي، ولد باليمامة ونشأ نشأة بدوية. ثم انتقل إلى البصرة وقد لقي خطوة عند الحجاج الذي أوصله إلى خلفاء بني أمية، فمدحهم فأعقدوا عليه المال.
11. الفرزدق (20هـ-114هـ) شاعر أموي، ولد بالبصرة في بيت أصل وشرف ونشبت بينه وبين جرير والأخطى حرب لسانية (نقائض) استمرت نحو خمسين عاما.
12. الأغاني ص 8/9.
13. نفسه ص 8/10.
14. الأغاني ص 8/29.
15. نفسه ص 8/24.

16. النقائض ص 623.
17. نفسه ص 206.
18. الأغاني ص 8/44.
19. ابن خلكان وفيات الأعيان ص 1/103.
20. الأغاني ص 8/413.
21. النقائض ص 383.
22. الأغاني ص 8/195.
23. الأغاني ص 8/49.
24. النقائض ص 383. وصاحب الجذث هو غالب بن صعصعة والد الفرزدق، ولا يعلم قبر أجار غيره. فقد استجارت به امرأة فرد عليها الفرزدق ابنها من بعث السند.
25. النقائض ص 200، وذو القروح هو امرؤ القيس. وجروك هو الحطيئة. وعلقمة هو علقمة الفحل الشاعر الجاهلي. وأبو زيد هو المخبل بن عوف. والنوابغ هم: النابغة الذبياني والنابغة الجعدي، والنابغة الشيباني.
26. النقائض ص 118. والعجان: ما بين الخصية وحلقة الدبر.
27. الأخط (20هـ - 92هـ) شاعر أموي من تغلب. نشأ في الحيرة واتصل ببني أمية فقربه معاوية وابنه يزيد. ولقب بشاعر بني أمية في عهد عبد الملك بن مروان.
28. نقائض جرير والأخط ص 72. عماه: هما كليب ومهلهل.
29. نفسه ص 74.
30. نفسه ص 109.
31. نفسه ص 135.
32. نفسه ص 127.
33. الأغاني ص 8/60 خز: ضيق العين. القطين: الخدم.
34. نقائض جرير والأخط ص 148.
35. الأغاني ص 8/8.

36. الأغاني ص 8/18.
37. النقائض ص 157.
38. المرزباني الموشح ص 62.
39. الأغاني ط دار الكتب ص 8/17.
40. نقائض جرير والفرزدق ص 379.
41. نفسه ص 424.
42. النقائض ص 848.
43. نفسه ص 874.
44. نقائض جرير والأخطك ص 87.
45. النقائض ص 778.
46. نفسه ص 778.
47. ابن رشيق العمدة ص 2/140.
48. النقائض ص 228.
49. نقائض جرير والأخطك ص 155.
50. ديوانه ص 114.
51. النقائض ص 557.